لا تيأس عندما تسقط في الخطيئة

الأب نيكن ڤوروبييڤ

عزيزي وصغيري ن.!

ثمّة الكثير للإجابة عنه في رسالتك، لكنّني سأتكلّم على ما هو أساسيّ. حكمة الله عظيمةٌ إلى درجة أنَّ الربَّ يُحوِّلُ الشرَّ إلى خيرٍ للإنسان. وقد تحدَّث العديد من الآباء القدِّيسين عن هذه الفكرة. يمكن للإنسان أن يَخلُص من خلال إيمانه وحفظِه الوصايا، التي تُحوِّلُ نفْسَ الإنسان (روحه)، وتُجدّدها، وتجعلها جديدةً على صورة الله، أو بتعبيرٍ أدقَّ، على صورة يسوع المسيح المخلِّص.

الصفة الأساسيَّة للإنسان "الجديد" هي التواضع ("تعلَّموا منِّي لأنِّي وديعٌ ومتواضع القلب..."). من دون التواضع، لا يُقرِّب حفظُ الوصايا الإنسانَ من الله، وليس ذلك فحسب، بل ويجعله خصمًا لله، لأنَّه إن لم يوجد التواضعُ فستوجد الكبرياء حتمًا. برأيي، ينطبق هنا ما ورد في الإنجيل بخصوص الشيطان الذي يُطرَدُ من الإنسان فيتجوّل في الخارج، وبعد أن يرى البيت نظيفًا ومرتّبًا ولكنْ فارغًا، يأتي بسبعة شياطين أخرى أشرَّ منه ويستقرّ معها في نفس الإنسان، فتصير أواخرُ هذا الإنسان أشرَّ من أوائله.

يشرح القدِّيس مكاريوس المصريُّ علاقة التواضع بالأهواء الأخرى مُستخدمًا مثَلَ الوليمة التي أُقيمت للملك وكبار المملكة. كانت الأطعمة قد أُعِدَّت من دون ملح (التواضع)، فلم يتلقَّ مُنظِّم الوليمة شُكرَ الملك بل غضبه. من هنا، إنّ فضائل الإنسان جميعها باطلةٌ من دون التواضع[1]. عندما ينتبه الإنسان إلى نفسه، ويجاهد باستمرارٍ ضدَّ الخطيئة، يفهم في النهاية كم هو فاسدٌ وكم أنَّ كيانه ممتلئٌ كلُّه بالكبرياء. وإذا تغلَّبَ على الاعتداد بالنَّفْس والغرور والغطرسة، فهذا يُعادل التغلُّب على الخطيئة بكلِّيَّتها.

هكذا، يتَّضح أنَّ السقوط في الخطيئة يمكنه أن يساعد الإنسان على اكتساب التواضع - بشرط ألَّا يلوم أحدًا أو شيئًا على سقطاته، بل أن يلوم نفسه فقط. الإنسان هو المذنب بالكامل؛ قد تُغويه الظروف والشيطان

[1] من دون التواضع، تدخل الكبرياء إلى النفس ومعها سبعة شياطين، أي الأهواء كلّها.

ليرتكب الخطيئة، وقد تُسهِّلها له، لكنَّ القرار النهائيَّ يعود إلى الشخص، وهو المسؤول عنها بالكامل. وما يُثبِتُ ذلك هو ندم الضمير بعد الخطيئة.

خلال حرب الإنسان ضدَّ الخطيئة الكامنة فيه، وخلال سقطاته المتتالية، يدرك فساده وعجزه. يدرك ذلك بالخبرة لا نظريًّا، ويكتسب التواضع شيئًا فشيئًا. تهزمه الخطايا دائمًا، فيسقط عند أقدام الربِّ بدموعٍ وقلبٍ منسحق، ويُقرُّ بعجزه متوسِّلًا إلى الربِّ: "يا الله، إن شئتَ، تستطيع أن تُطهِّرني (هكذا تكلّم الأبرص)، لأنَّني لا أستطيع أن أفعل شيئًا بنفسي. يا ربُّ، خلِّصني. يا ربُّ، علِّمني أن أفعل مشيئتك. يا ربُّ، أخرِجْ نفسي من السجن"[2]. حينئذٍ، يعرف الإنسان رحمة الله اللَّامتناهية تجاه الإنسان الساقط، لأنَّ الربَّ، عندما يرى توبة الإنسان الصادقة، يحميه ويمحو خطيئته، ويشفي جُرحَ نفسه الذي سبَّبته الخطيئة؛ فيعرف الإنسان بالخبرة وجودَ الله وعنايتَه وقصدَه للإنسان، ويعترف بأنَّ الربَّ قريبٌ من منكسري القلوب، وأنَّه حقًّا طبيب نفوسنا...

هكذا، فإنَّ ارتكاب الخطايا، وهو شرٌّ، يمكن أن يكون سببًا لخيرٍ عظيمٍ جدًّا. وهنا تكمنُ حكمة الله العجيبة، كما في كلِّ شيء، نعم، في كلِّ شيء.

لذلك، يا عزيزي ن.، لا تيأس عندما تسقط في الخطيئة، بل لُمْ نفسكَ أمام الله، واعترفْ له بخطئك من دون أن تتَّهم به أحدًا، وتواضعْ، واعترفْ بضعفكَ في كلِّ شيء، واطلبْ من الربِّ أن يحقِّق فيك وصاياه المقدَّسة. غير أنَّ هذا لا يعني أنَّه عليكَ ألَّا تجاهد بكلِّ قوَّتك. يجب على المرء أن يجاهد بكامل قوَّته، وأن يتلقّن أساليب هذا الجهاد من كتابات الآباء، وأن يتوقَّع الظروف التي تساعد على النصر أو الهزيمة، فيتجنَّب الأولى ويبحث عن الثانية. وقبل كلِّ شيء، على الإنسان أن يطلب عون الله عند أدنى ظهورٍ للأفكار الخاطئة، مُدرِكًا تمامًا أنّه عاجزٌ عن التغلُّب على الخطيئة بنفسه. ثمّ، إذا سقطتَ في الخطيئة، وبعد ارتكابها، يجب أن تتوسَّل إلى الله، من دون خجل، وتقول له: "يا ربُّ، أنتَ ترى ما أرتكبُه، ارحمني، أعنِّي، حرِّرني من سُلطة الشيطان"... وابكِ أمام الربِّ في داخلك، توسَّلْ إليه ليُساعدكَ في كلِّ شيء؛ افعلْ هذا طول حياتك، لأنَّه من الصعب أن تُحفَظَ الوصايا في هذا العالم. كان الآباء القدماء يبكون على رجال زماننا، إذ كانوا يعلمون أنَّ نفوسًا كثيرةً ستهلك بسبب الخطايا.

[2] عندئذٍ فقط سيفهم الإنسان حاجته إلى مخلّصٍ ومجيئه إلى الأرض، ومعنى ذبيحته على الصليب.

ثمّة وسيلةٌ أخرى قويّةٌ للجهاد ضدَّ الخطيئة: بمجرَّد أن تسقط في خطيئةٍ خطيرة، اذهبْ واعترفْ بها لأبيك الروحيّ. وإنْ لم يكن ذلك ممكنًا على الفور، فافعلْ ذلك في أقرب فرصةٍ ممكنة، ولا تؤجِّل الأمر! إنَّ مَن يعترف بخطيئته غالبًا وفورًا يُثبِت أنَّه يكره الخطيئة ويكره عبوديَّة الشيطان، وأنّه مستعدٌّ لتحمُّل الخجل في الاعتراف لكي يتخلَّص من الخطيئة، ويتطهَّر منها، ويتلقَّى من الربِّ مغفرة الخطايا المرتكبة، بل وأيضًا القوَّة للجهاد في المستقبل، وأخيرًا، النَّصرَ الكامل، من دون أن يعتدَّ بنفسه ويسقط في الكبرياء. افطنْ لهذا جيّدًا (ففخاخ الشيطان موجودةٌ في كلِّ مكان).

ضعِ الأُسُسَ الصحيحة: حارِبْ على قدر استطاعتك، ولا تيأسْ إذا سقطتَ، واحزنْ، وتوسَّل إلى الربِّ، وحدِّدْ مُسبَقًا الظروف الضارّة والخطيرة التي يجب أن تهرب منها، واعترفْ فورًا لأبيك الروحيِّ، واكتسب التواضع بتذكُّر خطاياك القديمة والحاليّة. سيأتي الربُّ لإعانتك، وستكون جنديًّا مسيحيًّا مختبرًا، قادرًا حتَّى على مساعدة الآخرين في المستقبل.

لا تستسلمْ للكسل. إذا سيطر عليكَ الكسل في عملٍ معيَّن، فانتقِلْ إلى شيءٍ آخر. لا تُهملْ قانون صلاتك الصغير. واعتدْ أن تتوجَّه مرّةً في الساعة على الأقلِّ إلى الربِّ ووالدة الإله، وتطلب منهما أنْ يغفرا لكَ ويُساعداك، وإذا استطعتَ أن تفعل ذلك بتواترٍ أكبر، فافعلْ. ليُساعدكَ الربُّ، بصلوات القدِّيس سيرجيوس وصانعي العجائب في رادونيج. كُنْ شجاعًا، لا تستسلمْ. سلامٌ لك.

ليباركْكَ الربُّ ويُنِرْ طريقكَ لعمل الخير، ويحمِكَ من كلِّ شرّ. فلتكُن الخطايا سببًا لتكتسِب التواضع ودموع القلب. اجعلْ كلَّ شيءٍ مفيدًا لك، فكلُّ شيءٍ يُسهم في خير الإنسان الذي يحبُّ الله، أي الذي يطلب الربَّ بكلِّ نفسه من خلال حفظ وصاياه المقدَّسة.

أبوك الذي يحبُّك. 15 نوفمبر 1950.

نبذة عن الأب نيكُن ڤوروبييڤ (1894-1963):

وُلِدَ الأب نيكُن في روسيا القيصريّة، وشهد جميع الأحداث المأساويّة في القرن العشرين مثل: الثورة، والعديد من الحروب، والقمع، والاضطرابات الاجتماعيّة. كان ابن فلّاح، ذكيًّا وموهوبًا، وقد تميّز بين إخوته الستّة بالجدّيّة، والصدق، والوداعة، والطيبة. كان يبحث دائمًا عن الجوهر، راغبًا في اكتشاف معنى الحياة.

جرى التنبّؤ له في طفولته بأنّه سيكون راهبًا، وبعد أن أصبح راهبًا في سنوات إغلاق الأديرة وتدمير الكنائس، جاهدَ زاهدًا في إحدى الرعايا حتّى نهاية أيّامه في العالم. نجا من الاعتقال والسجن والنفي إلى معسكرات سيبيريا. عاش ناسكًا، وكان قاسيًا على نفسه، ولكن مُحبًّا للآخرين. اكتسب صلاة يسوع المستمرّة وموهبة التمييز الروحيّ. وكانت نصائحه عن الحياة الروحيّة مبنيّةً على خبرةٍ شخصيّةٍ ومليئةً بنور نعمة الله.

رقد في 7 أيلول 1963، ومن المتوقّع أن تُعلن الكنيسة الروسيّة قداسته قريبًا.

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Higoumène Nikon Vorobiev (2015). *Lettres Spirituelles*. In *Grands spirituels orthodoxes du XXe siècles* (Jean-Claude Larchet, eds.). "L'Age d'Homme", Lausanne, Suisse.